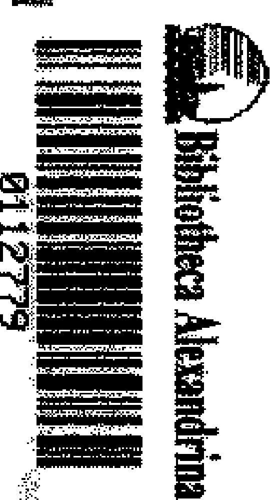
أدونيس







هذا هو اسمي

«صياغة نهائية»

هذا هو اسمي

أدونيس

هذا هو اسمي

ـ صياغة نهائية ـ

دار الآداب ـ بيروت

طبعة جديدة
١٩٨٨

إشارة

ترجمت هذه المجموعة إلى اللغة الفرنسية السيدة آن ويد مينكوفسكي، ونشرت بعنوان «قبر من أجل نيويورك» (سندباد، باريس ١٩٨٦) وكانت قد نشرت للمرة الأولى بعنوان «وقت بين الرماد والورد».

مقدمة لتاريخ ملوك الطوائف

وجه يافا طفلٌ   هل الشجَرُ الذابل يزهو؟ هل تَدخل
الأرض في صورة عذراء؟   من هناك يرجّ الشرق؟
جاء العصف الجميلُ ولم يأتِ الخرابُ الجميلُ   صوتٌ
شريدٌ. . .

(كان رأسٌ يهذي يهرّجُ محمولاً ينادي أنا الخليفةُ).

هاموا حفروا حفرةً لوجهِ عليٍّ   كان طفلاً وكان أبيض
او أسودَ، يافا أشجارُه وأغانيه ويافا.
تكدّسوا، مزّقوا وجهَ عليٍّ

دمُ الذبيحة في الأقداحِ، قولوا: جبّانةٌ،
لا تقولوا: كان شعري ورداً وصار دماءً،
ليس بين الدماء
والورد إلا خيط شمسٍ، قولوا: رماديَ بيتٌ
وابنُ عبّادَ يشحذ السّيفَ بين الرأس والرأس
وابن جَهْورَ ميْتٌ.

لم يكن في البدايهْ
غير جذْرٍ من الدمع   أعني بلادي
والمدى خيطيَ ـ انقطعتُ وفي الخُضْرَةِ العربيّهْ
غرِقتْ شمسيَ   الحَضارة نَقّالةٌ، والمدينهْ
وردةٌ وثنيّهْ ـ
خيمةٌ:

هكذا تبدأ الحكايةُ أو تنتهي الحكايهْ.
والمدى خيطيَ ـ اتّصلْتُ أنا الفوهةَ الكوكبيهْ
وكتبتُ المدينه
(حينما كانت المدينة مقطورةً والنواحْ
سورُها البابليُّ)، كتبتُ المدينهْ

مثلما تنضحُ الأبجديّهْ
لا لِكَيْ ألأمَ الجراحْ
لا لِكَيْ أبعْثَ المومياءْ
بل لكي أبعْثَ الفروقَ. . .   الدِّماءْ
تجمعُ الوَرْدَ والغرابَ   لكي أقطَعَ الجسورْ
ولكي أغسل الوجوه الحزينه.
بنزيف العصورْ.
وكتبتُ المدينه

مثلما يذهب النبيُّ إلى الموت أغني بلادي
وبلادي الصّدى
والصّدى والصّدى . . .

كشفَتْ رأسها البَاءُ، والجيمُ خصلةُ شَعْرٍ، إنْقرضْ إنْقرضْ
ألِفٌ أولُ الحروف انقرضْ إنْقرضْ
أسمعُ الهاءَ تنشجُ، والراءُ مثلُ الهلالْ
غارقاً ذائباً في الرمالْ
إنقرضْ إنقرضْ
يا دماً يتخثّر يجري صحارَى كلامْ

يا دماً ينسج الفجيعة أو ينسج الظلامْ
إنْقرض إنْقرض
سحرُ تاريخكَ انتهى،
واعْذري واغْفري
يا قرونَ الغزالاتِ، يا أعينَ المها . . .

أحارُ، كلَّ لحظةٍ أراكِ يا بلادي
في صورةٍ،

أحملكِ الآنَ على جبيني، بين دمي وموتي: أأنتِ مقبرةْ
أم وردةٌ؟

أراكِ أطفالاً يُجرْجِرونْ
أحشاءهم، يُصغونَ يسجدونْ
للقيد، يلبسونْ
لكلِّ سَوْطٍ جلدهُ... أمقبرهْ

أم وردةٌ؟

قتلتني قتلتِ أغنياتي
أأنتِ مجزرَهْ
أم ثورةٌ؟
أحارُ، كلّ لحظةٍ أراكِ يا بلادي في صورةٍ...

وعليٌّ يسأل الضوءَ، ويمضي
حاملاً تاريخَهُ المقتولَ من كوخٍ لكوخٍ:

«علّموني أنّ لي بيتاً كَبَيْتي في أريحا
أنّ لي في القاهره
إخوةً، أنّ حدودَ الناصره
مكةٌ.

كيف استحالَ العلمُ قيداً
والمدى نارَ حصار، أو ضَحيّهْ؟
ألهذا يَرفضُ التاريخ وجهي؟
ألهذا لا أرى في الأفق شمساً عربيّه؟»

آهِ لو تعرف المهزلَهْ
(سمِّها خطبةَ الخليفةِ أو سمِّها المهرجانْ)
ولها قائدانْ
واحدٌ يَشْحذُ المقصلَهْ
واحدٌ يتمرّغُ . . . لو تعرف المهزلَهْ
كيف، أينَ انسللْتْ
بين عُنْقِ الذّبيح ومِقْصلة الذّابحينْ؟
كيفَ ماذا، قُتِلتْ؟
كُنتَ كالآخرينَ، انتهيتَ
ولم تَنْتَهِ المَهزلهْ
كنتَ كالآخرينَ - ارْفضِ الآخرينْ
بدأوا من هناكَ ابتدىءْ من هُنا
حول طفلٍ يموتْ
حولَ بيتٍ تهدَّم فاستعْمَرتْه البيوتْ
وابتدىءْ من هنا

من أنين الشوارع من ريحها الخانقهْ
من بلادٍ يصير اسمها مقبره
وابتدىءْ من هنا
مثلما تبدأ الفجيعةُ أو تُولَد الصّاعقهْ
مُتَّ؟ ها صرْتَ كالرعد في رَجِم الصّاعقه
بارئاً مثلما تَبْرأُ الصاعقه
أنظر الآن كيف انْصهرتَ وكيف انبعثتَ، انتهيتَ ولـم تَنْتَـهِ الصّاعِقَةْ.

أعرفُ، كان ملكَكَ الوحيدَ ظِلٌّ خيمةٍ، وكان فيها خِرقٌ،
ومرّةً يكونُ ماءً، مرّةً رغيفٌ، وكان أطفالك يكبرونْ
في بُرْكةٍ،
لم تيْأسِ انْتفضْتَ صرتَ الحلمَ والعيونْ
تظهرُ في كوخٍ على الأرْدنّ أو في غزّةٍ والقدْسْ
تقتحمُ الشارعَ وهو مَأتمٌ تتركه كالعرْسْ
وصوتُك الغامرُ مثلُ بحرٍ
ودمُكَ النافرُ مثلُ جبلٍ
وحينما تحملك الأرضُ إلى سريرها
تترك للعاشقِ للاّحقِ جدولينْ
من دمكَ المسْفوحِ مرّتينْ.

· وجه يافا طفلٌ   هل الشجرُ الذابلُ يزهو؟ هل تدخل الأرضُ في صورةِ عذراءَ   مَنْ هناكَ يرجُّ الشرق. جاء العَصْفُ الجميلُ ولم يأتِ الخرابُ الجميلُ   صوتٌ شريدٌ...

سقطَ الماضي ولم يسقطْ (لماذا يسقط الماضي ولا يسقطُ؟)
دالٌ قامةٌ يكسرها الحزنُ (لماذا يسقط الماضي ولا يسقطُ؟)
قافٌ قابُ قوسين وأدْنى
أطلبُ الماءَ ويعطينيَ رملاً
أطلب الشمسَ ويعطينيَ كهفاً

سيّدٌ أنتَ؟ ستبقى
سيّداً. عبدٌ؟ ستبقى

هكذا يؤثَرُ، يعطينيَ كهفاً وأنا أطلبُ شمساً، فلماذا سقط الماضي ولم يسقط؟ لماذا هذه الأرضُ التي تَنْسلُ أياماً كئيبَةْ هذه الأرضُ الرّتيبةْ.
سيّدٌ أنتَ؟ ستبقى
سيّداً. عبدٌ؟ ستبقى
غيّرَ الصورةَ لكن سوف تبقى غيّرَ الرايةَ لكن سوف تبقى

... في خريطةٍ تمتدّ... إلخ، حيث يدخلُ السيّد المقيمُ في الصفحة ١ راكباً حيواناً بحجم المشنقة، يتحوّلُ إلى تمثالٍ

ملء الساحات العامة. و (كانت) الحاكمة تغسل عجيزتها وحولها نساءٌ يدخلن في الرّمح ويمضغن بخورَ القصر والرجال يسجّلون دقات قلوبهنّ على زمنٍ يتكوّم كالخرقة بين الأصابع حيث

ك ترتجف تحت نواةٍ رفضيّةٍ بعمق الضوء

ت تاريخٌ مسقوف بالجثث وبخار الصلاة

أ عمود مشنقة مبلّلٌ بضوءٍ موحل

ب سكين تكشط الجلد الآدميّ، وتصنعه نعلاً لقدمين سما ويتين في خريطةٍ تمتدّ. . . إلخ.

شجرٌ يثمرُ التحوّلَ والهجرةَ في الضوءِ جالسٌ في فلسطين وأغصانُهُ نوافذُ أصغينا لأبعادِهِ قرأنا معه نجمةَ الأساطير جندٌ وقضاةٌ يدحرجون عظاماً ورؤوساً، وآمنونَ كما يرقد حلمٌ يُهجَّرون، يُجرّونَ إلى التّيه. . .

كيف نبدأ؟

(- يكفيني رغيفٌ، كوخٌ وفي الشّمس ما يمنح فَيْئاً، لا لستُ خوذةَ سيّافٍ ولا ترسَ سيّدٍ، أنا نهرُ الأردنَ أستفردُ الزهورَ وأغويها دمٌ نازفٌ تبطّنتْ أرضي ودمي ماؤها دَمي وسيبقى ذلك السّاهرُ النّحيلُ: غبارٌ يمزجُ العاشقَ المشرَّدَ بالريح، ويبقى نسغٌ).

يتمتم طفلٌ، وجهُ يافا

طفلٌ   هنا سقط الثائرُ   حيفا تئنُّ في حجَرٍ أسوَدَ
والنّخْلةُ التي فيّأت مريمَ تبكي   همسْتُ في قدمي جوعٌ
وفي راحتيَّ تضطرب الأرضُ   كشفنا أسرارَنا (بُقع الدمع
طريقٌ) أجسُّ خاصرة الضوء يجثّ الصحراءَ والكونَ مربوطاً
بحبلٍ من الملائكِ   هل تشهدُ آثار كوكبٍ، يسمع
الكوكبُ صوتي رويتُ عنه سأروي . . .
في زَمن الرّماد، شَخَصٌ رَمَى تاريخه لجِمْر أيّامِنا، وماتَ
(لن تعرفَ حرّيةً ما دامت الدولةُ موجودةً).

تذكرُ؟ (والقاعدهْ
وسلطةُ العمال . . .) ما الفائده
تنحدرُ الثورة بعد اسْمهِ
في لفظةٍ، تمتدّ في مائدهْ
هل تقرأ المائده؟

كان فدائيٌّ يخطّ اسمه ناراً وفي الخناجر البارده
يموتُ
والقدسُ تخطّ اسمها:
لم تزل الدولةُ موجودةً

لم تزل الدولةُ موجودةً.
غيرَ أنّ النّهرَ المذبوحَ يجري:

كلّ ماءٍ وجه يافا

كل جرحٍ وجه يافا

والملايين التي تصرخُ: كلاّ، وجه يافا

والأحبّاء على الشرُّفة، أو في القيد، أو في القَبْر يافا

والدَّمُ النّازِفُ من خاصرةِ العالم يافا

سمِّني قيساً وسَمِّ الأرض ليلى

باسْمِ يافا

باسم شعبٍ يرفع الشمس تحَيَّهْ

سمِّني قنبلةً أو بندقيّهْ...

هذا أنا: لا، لستُ من عصر الأفولْ

أنا ساعةُ الهتْك العظيم أتت وخلخلةُ العقولْ

هذا أنا ـ عبرَتْ سحابه

حبلي بزوبعة الجنونْ

والتّيهُ يمرق تحت نافذتي، يقول الآخرونْ:

ماذا يقول الآخرون؟

(ـ يرعى قطيع جفونهِ

يصل الغرابةَ بالغرابهْ).

هذا أنا أصلُ الغرابةَ بالغرابهْ

أرّخَتُ: فوق المئذنهْ

قمرٌ يسوس الأحصنَهْ

وينام بين يدَيْ تميمه
وذكرتُ: بقّعتِ الهزيمه
جَسدَ العصورْ
وَهْرانُ مثل الكاظميّةْ
ودمشق بيروت العجوز
صحراءُ تزدردُ الفصولَ، دمْ تعفّنَ - لم تعد نارُ الرموزْ
تلِد المدائن والفضاء، ذكرتُ لم تكن البقيّةْ
إلا دماً هَرماً يموتُ يموتُ بقّعت الهزيمَهْ

جسدَ العصورْ.

. . . في خريطةٍ تمتدّ إلخ، حيث تتحول الكلمة إلى نسيجٍ تعبرُ في مسامّه رؤوسٌ كالقطن المنفوش، أيامٌ تحمل أفخاذاً مثقوبةً تدخل في تاريخٍ فارغ إلا من الأظافر، مثلّثاتٌ بأشكال النساء تضطجع بين الورقة والورقة؛ كلّ شيء يدخل إلى الأرض من سُمّ الكلمة، الحشرةُ الله الشاعر.

بالوَخْز والأرق وحرارةِ الصّوت، بالرّصاص والضوء، بالقمر ونملة سليمان، بحقولٍ تثمر لافتاتٍ كتب عليها «البحث عن رغيف» أو «البحث عن عجيزة لكن استتروا» أو «هل الحركة في الخطوة أم في الطريق؟».

والطريقُ رملٌ يتقوّس فوقه الهـواء والخطـوة زمَـنٌ أملس كالحصاة . . .

وكان الوقت يشرف أن يصبح خارج الوقت وما يُسمّونـه الوطن يجلس على حافّة الزمن يكاد أن يسقط، «كيف يمكن إمساكه؟» سأل رجل مقيّد وشبه ملجوم.

لم يجئه الجواب لكن جاءه قيدٌ آخر وأخذ حشدٌ كمسحوق الرمل يفرز مسافةً بحجم لام ميم ألف أو بحجم ص غ ي هـ ك ويسير فيها ينسج راياتٍ وبُسُطاً وقِباباً ويبني جسراً يعبر عليه من الآخرة إلى الأولى . . .

حيث عبرت ذبابةٌ وجلست على الكلمة، لم يتحرّك حرف، طارت وقد استطـال جناحاهـا عبرَ طفـلٌ وسأل عن الكلمـة طلـع في حنجرتـه شوكٌ وأخـذ الخـرَس يدبّ إلى لسانه . . .

في خريطةٍ تمتد . . . إلخ، حيث

«العـدوُّ يطغـى وهـم يخسرون، ويمـدّ وهم يَجْـزُرون، ويطـول وهـم يَقْصرُون، إلى أن عادوا إلى علـمٍ ناكسٍ وصوتٍ خافت، وانْشَغل كلّ ملكٍ بسدّ فتوقه،

. . . وعندمـا يجـدّ الجِدُّ ويطلـب الأنـدلس عَوْنَ الملك الصالـح لاستخـلاص إقليم الجزيرة، وقـد سقـط في أيدي

الأسبان، يكتفي بالأسَف والتّعزية ويقول بأنَّ الحرب سجالٌ وفي سلامتكم الكفاية، . . . ولـم يزل العـدوّ يواثبهـم ويكافحهم ويُغادِيهم القتالَ ويراوحهـم حتّى أجْهضَهم عن أماكنهم وجَفّلهم عن مساكنهم، وأركبهم طبقاً عن طبق واسْتأصلهم بالقتل والأسر كيفما اتفق. . . ».

في خريطة تمتد. . . إلخ،

.رفضَ التاريخُ المعروفُ الذي يُطبخ فوق نار السلطان أن يذكر شاعراً. . . والبقية آتيةٌ،

في خريطةٍ تمتدّ. . . إلخ.

يأتي وقتٌ بين الرّماد والورد
ينطفىءُ فيه كلّ شيء
يَبْدأ فيه كلّ شيء.

. . . واغنّي فجيعتي، لم أعد ألمح نفسي إلاّ على طرَف التاريخ في شفْرةٍ سأبدأ، لكن أين؟ من أين؟ كيف أوضح نفسي وبأيّ اللّغاتِ؟ هذي التي أرضع منهما تخونُني سأزكّيها وأحيا على شفير زمانٍ ماتَ، أمشي على شفير زمانٍ لم يجيءْ.

غيرَ أنني لستُ وحدي

. . . ها غزالُ التاريخ يفتحُ أحشائيَ   نهرُ العبيد يهدُر، يجتاحُ اكتشفنا ضوءاً يقود إلى الأرض، اكتشفنا شمساً تجيء من القبضةِ، هاتوا فؤوسكم نحملُ الماضي كشيخٍ يموت، نَستشرفُ الآتي، هُياماً ورغبةً.

لستُ وحدي

. . . وجه يافا طفلٌ   هل الشجر الذابل يزهو؟ هل تدخـل الأرض في صورة عذراء؟   من هنـاك يرجّ الشرقَ؟   جاء العَصْفُ الجميل ولم يأت الخراب الجميل

صوتُ شريدٌ. . .
خرجوا من الكتب العتيقةِ حيثُ تهترىءُ الأصولْ
وأتوا كما تأتي الفصولْ
حضنَ الرَّمادُ نقيضَهُ
مَشَتِ الحقولُ إلى الحقولْ:

لا ، ليس من عصر الأفولْ
هو ساعةُ الهتْكِ العظيمِ أتتْ، وخلخلةُ العقولْ .

(بيروت، خريف ١٩٧٠).

هذا هو اسمي

ماحياً كل حكمةٍ   هذه ناريَ
لم تبقَ ـ آيةٌ ـ دميَ الآيةُ
هذا بدْئي

دخلتُ إلى حوضكِ   أرضٌ تدور حوليَ أعضاؤكِ
نيلٌ يجري   طَفَونا ترسبْنا   تقاطعتِ في دمي قطعَتْ
صدركِ أمواجيَ انهصرتِ لنبْدأ : نسيَ الحبُّ شفرَةَ الليل هل
اصرخُ أنَّ الطوفان يأتي؟   لِنبْدأ: صرخةٌ تعرج المدينةَ
والناسُ مرايا تمشي   إذا عبَر الملحُ التقينا هل أنتِ؟

ـ حبّيَ جرحٌ
جسديَ وردةٌ على الجرح لا يُقطَفُ إلا موتاً. دمي غُصُنٌ
أسلم أوراقه استقرَّ. . .

هل الصخرُ جوابٌ؟ هل موتكِ السيدُ النائم يُغْوي؟ عندي
لثدييكِ هالاتُ وَلوعٍ لوجهك الطفل وجهٌ مثلهُ. . . أنتِ؟
أجدكِ.

وهذا لهبي مَاحياً

دخلتُ إلى حوضكِ   عندي مدينةٌ تحت أحزانيَ

عندي ما يجعل الغُصنَ الأخضرَ ليلاً والشمسَ عاشقةً سوداءَ

عندي . . .

تقدَّموا فقراءَ الأرض غطّوا هذا الزّمان بأسمالٍ ودمْعٍ

غطّوهُ بالجسد الباحث عن دفئِه . . . المدينةُ أقواسُ جُنونٍ

رأيتُ أن تلدَ الثورة أبناءَها، قبرت ملايين الأغاني وجئتُ

(هل أنتِ في قبريَ)؟ هاتي ألمسْ يديكِ اتبعيني.

زَمني لم يجيءْ ومقبرة العالم جاءت   عندي لكل

السلاطين رمادٌ   هاتي يديك اتبعيني . . .

قادِرٌ أن أغيِّر: لغُمُ الحضارة ـ هذا هو إسْمي

(لافتة)

. . . وقفت خطوة الحياة على باب كتابٍ محوته بسؤالاتيَ

ماذا أرى؟ أرى ورقاً قيل استراحت فيه الحضارات (هل

تعرف ناراً تبكي؟) أرى المئة اثنين أرى المسجدَ الكنيسةَ

سيّافيْن والأرض وردةً.

طار في وجهيَ نَسْرٌ   قدَّستُ رائحة الفوضى

ليأت الوقتُ الحزين لتستَيْقِظْ شعوب اللهيب والرَّفض

صحْرائيَ تنمو أحببتُ صفصافةً تحتارُ بُرْجاً يتيهُ مِئْذنةً تهرمُ أحببتُ شاعراً صَفَّ لبنانُ عليه أمعاءَهُ في رسومٍ ومرايا وفي تمائِمَ

قلتُ الآن أُعطي نفسي لهاوية الجنس وأعطي للنار فاتحة العالم قلتُ استقِرَّ كالرمح يا نيرون في جبهة الخليفةِ روما كلُّ بيتٍ روما التخيُّل والواقع روما مدينةُ الله والتاريخ قلتُ استقرَّ كالرمح يا نيرونُ . . .

لم آكل العشيَّة غير الرّملِ ، جوعي يدورُ كالأرضِ أحجارٌ قصورٌ هياكلُ أتهجّاها كخبزٍ رأيت في دميَ الثالثِ عينيْ مُسافرٍ مزج الناس بأمواج حلمِه الأبديّ
حاملاً شعلةَ المسافات في عَقْلِ نبيٍّ وفي دمِ وَحْشيٍّ .

. . . وعليٌّ رَمَوْهُ في الجبِّ غَطَّوهُ بقشٍّ والشمس تحمل قتلاها وتمضي هل يعرف الضوءُ في أرض عليٍّ طريقَهُ؟ هل يُلاقينا؟ سمعنا دماً رأينا أنيناً .

سنقول الحقيقة : هذي بلادٌ
رفعت فخذَها
رايةً . . .

سنقول الحقيقة : ليست بلاداً

هي إصطبلنا القمريّ

هي عُكّازة السّلاطين سجّادةُ النبيّ

سنقول البساطة : في الكون شيءٌ يسمّى الحضور وشيءٌ يُسمى

الغيابَ نقول الحقيقةَ :

نحن الغيابْ

لم تلدنا سماءٌ لم يلدنا ترابْ

إننا زَبدٌ يتبخَّرُ من نَهَرِ الكلماتِ

صداً في السماء وأفلاكُها

صدَاً في الحياةِ!

(منشور سري)

وطني فيءٌ لاجيء

وليكنْ وجهيَ فيئاً!

دهْرٌ من الحجر العاشق يمشي حولي أنـا العاشـق الأول للنار

تحبلُ النار   أياميَ نارٌ أنثى دَمٌ تحت نهديهـا صليلٌ والإبطُ آبارُ دمعٍ نهَرٌ تائهٌ وتلتصـق الشـمس عليهـا كالشوبِ تزلقُ   جرحٌ فَرَّعتْه وشعشعَتْهُ بباءٍ وبهارٍ (هذا جنينُكِ؟) أحزانيَ وَرْدٌ.

دخلتُ مدرسة العشب جبيني مُشقَّقٌ ودمي يخلع سلطانَه: تساءلتُ ما أفعـلُ؟ هل أحزم المدينـة بالخبـز؟ تناثـرتُ في رواقٍ من النار   اقتسمْنا دمَ الملوكِ وجعْنا

نحمل الأزمنه

مازجين الحصى بالنجومْ

سائقين الغيومْ.

كقطيعٍ من الأحصنَه.

قادرٌ أن أغيِّر: لغمُ الحضارةِ ـ هذا هو اسْمي

الأمّة استراحتْ
في عسل الرباب والدحرابْ
حصّنها الخالقُ مثلَ خندقٍ
وسدّهْ.
لا أحدٌ يعرفُ أين الباب
لا أحدٌ يسأل أين البابْ.

(منشور سري).

. . . وعليٌّ رموهُ في الجبِّ كان الجمر ثوباً له اشتعلنا تمسّكنا بأشلائِه اشتعلتُ مساءَ الخير يا وردةَ الرّماد عليٌّ وطنٌ ليس لاِسْمِهِ لغةٌ ينزف نفْياً ويُنْبت العشب والماء عليّ مهاجِرٌ.

أين يغفو سيد الحزن كيف يحمل عينيه؟ سمائي مخنوقةٌ كتِفي تهبط والأرض خوذةٌ مُلئتْ رملاً وقَشاً هَلعْتُ أركض غطّتني ستونوتةٌ نهضتُ لهيبُ ناهداها نهضتُ افتحُ شبّاكاً: حقولٌ خضرٌ أنا الفاتح الآخر والأرض لعبةُ فرسٌ تدخل في الغيم.

يخرج الشجرُ العاشقُ غصنٌ يهزّني انْبجَس الماءُ انتهى زمن الناس القديمُ ابتدأتُ وجهي مداراتٌ وفي الضوء ثورةً.

أيقظتْنـي قريةٌ في مهبِّـهِ   انْكسـر الصمـتُ
احتضنّي   يا خالقَ التعبِ امنحني أُراجيحَكَ امتحنّي أنا
الصخرة والبحث والسُّؤالُ ولا عيدُ ولا موقدُ أنا الشّبح الراصدُ
فِي فجوة المدينةِ والناس نيامٌ   دخلتُ في شَرَك الضوء
نقياً كالعُنُف أسطعُ كالتيه خفيفاً أطرافيَ البرق أطرافي رياحٌ
منحوتةٌ ليس عظمي طعمَ تاجٍ أو فضّةٍ لستُ مُلْكاً ودمي هجرةُ
السماء وعيناي طيورٌ   يُقال جلدكَ شوكٌ لتمتْ ولتكن
سمائيَ من جلدكَ صفراء قيل جلدك دهرٌ راسبٌ في قرارة
الحلْمِ.
وَلتُولدْ حِرابُ الوقيعة الأبديّه
بيننا حفرة انهدامٍ وصوتي
هذيانُ المغيرِ يكسر عُكّاز الأغاني ويقلع الأبجديّه
. . . والنساءُ ارْتحْنَ في مَقْصورةٍ
يستجرْنَ الكتبَ المستنزلَهْ
ويُحوّلنْ السماءْ
دميةً أو مقصلهْ
وعليٌّ فاتحٌ أحزانَه
لبهاليل الشقاء
للذين استنْسروا وانكسروا . . .
وعليٌّ لَهبٌ

ساحرٌ مشتعلٌ في كلّ ماءْ
عاصفاً يجتاحُ ـ لم يترك تراباً أو كتاباً
كَنس التاريخ غطَّى
بجناحيه النَهارْ
سرَّه أنَّ النهار
جُنَّ
هذا زمنُ الموتِ، ولكن
كلّ موتٍ فيه موتٌ عربيّ
تسقط الأيام في ساحاتِه
كجذوع الأرزة المكتهلهْ
إنه آخرُ ما غنَّى بهِ
طائرٌ في غابةٍ مشتعلهْ

وطني راكضٌ ورائي كنهرٍ من دمٍ جبهة الحضارة
قاعٌ طحلبيٌّ لملمت تاجاً تقمَّصْتُ سراجاً هامت
دمشق حنَت بغدادُ سيفُ التاريخ يُكسَّرُ في وجه بلادي
مَن الحريقُ مَن الطوفانُ؟

كنتِ الصحراء حين أسرتُ الثلج فيكِ انشطرتُ مثلك رملاً
وضباباً صرختُ أنتِ إلَهٌ لأرى وجهه لأمحوَ ما يجمع بيني
وبينه قلتُ جاسدتِك أنتِ الشِقُّ المليء بأمواجي أنا الليلُ

حافياً حين أدخلتكِ في سُرَّتي تناسلتِ في خطوي طريقاً
دخلتِ في مائيَ الطِّفل   استضيئي تأصَّلي في متاهي

خدَرٌ مثمرٌ يعرِّش حول الراس حلمٌ تحت الوسادة أياميَ
ثقبٌ في جيبيَ اهترأ العالَمُ   حوَّاء حائلٌ في سراويليَ
أمشي على جليدٍ
ملذَّاتيَ أمشي بين المحيِّر والمعجزِ أمشي في وردةٍ

زهراتُ اليأس تذوي والحزن يصدأ   جيشٌ من وجوهٍ
مسحوقةٍ يعبر التاريخ جيشٌ كالخيط أسْلَم واستسلَم، جيشٌ
كالظِّل   أركض في صوت الضحايا وحدي على شفة
الموتِ كقبرٍ يسيرُ في كرةِ الضوء.

انصهرنا دَمُ الأحياء كالأهداب يحمي سمعتُ نبضكِ في
جلديَ (هل أنتِ غابةٌ؟) سقط الحاجزُ (هل كنتِ حاجزاً؟)
سأل النورس خيطاً في البحر يغزله الرُّبانُ غنّى ثلج المسافر
شمساً لا يراها (هل أنتِ شمسيَ؟) شمسي ريشةٌ تشرب
المدى سمع الضائع صوتاً (هل أنتِ صوتيَ؟) صوتي زمني
نبضك الشهيُّ ونهداكِ سوادي وكل ليلٍ بياضي
زحفت غيمةٌ فاسلمتُ للطوفان وجهي وتهتُ في أنقاضي...

هكذا أحببتُ خيمه

وجعلت الرَّملَ في أهدابها
شجراً يمطر والصحراء غيمَهْ
قلتُ: هذي الجرَّة المنكسره
أمّة مهزومةٌ، هذا الفضاءْ
رَمَدٌ. هذي العيونْ
حُفَرٌ. قلت الجنون
كوكبٌ مختبىءٌ في شجره.
سأرى وجه الغرابْ
في تقاطيع بلادي، وأسمّي
كَفَناً هذا الكتابْ
وأسميٌ جيفةً هذي المدينه
وأسمِّي شجرَ الشام عصافير حزينه
(ربَما تولَدُ بعد التّسميهْ
زهرة أو أغنيهْ)
وأسمِّي قمرَ الصحراء نخلهْ
ربما استيقظت الأرض وعادت
طفلةً أو حلْم طفلهْ
لم يعد شيءٌ يغنّي أغنياتي:
سيجيء الرافضونْ
ويجيء الضوء في ميعادِه...

لم يعد غيرُ الجنونْ
هل لتاريخيَ في ليلكَ طفلٌ
يا رمادَ المدفأه
غضبُ الثورة جمرٌ عاشقٌ
وأغانيَّ امرأهْ :
هل لتاريخيَ في ليلكَ طفلٌ؟

ألغبارُ التراثيّ في العظم ألجأ؟ هل يُلجِىءُ الغبارْ؟
لا مكانٌ ولا ينفع الموتُ. . . هذا دُوارْ
من يرى جثّة العصور على وجهه ويكبو لا حِراكٌ
يحسُّ الكهولَهْ
حلْمةً للطفولَهْ

قادِرٌ أنْ أغيِّر: لغْمُ الحضارة ـ هذا هو اسمْي

عُدْ إلى كهفكَ التواريخُ أسرابُ جرادٍ، هذا التاريخُ يسكن في حضن بغيٍّ يجترُّ يشهقُ في جوف أتانٍ ويشتهي عفَنَ الأرض ويمشّي في دُودةٍ عُد إلى كهفكَ واخفض عينيكَ

ألمح كِلْمَهْ

كلنا حولها سرابٌ وطينٌ لا امرؤُ القيس هزَّها والمعرِّي

طفلُها وانحنى تحتها الجُنَيْدُ انحنى الحلاج والنِّفّري
روى المتنبي أنها الصَّوت والصَّدى   أنتَ مملوكٌ
هيَ المالكُ

وهيَ الملاكُ   ترتسمُ الأمة فيها كبذْرَةٍ
عُدْ الى كهفكَ
ماذا؟ نَفُوهُ أو قتلوهُ؟
قتلوهُ. . . لا لن أحدّث عن موت صديقي: زيفٌ من الزَّهرَ
الأصفر حولي   لكن سأكتب عن آخر غصنٍ في أرزةِ
البيتِ عن رفٍّ يمامٍ يجرّ سَجّادة الليل عن الحلْم عالياً
كبُروجٍ.

قتلوهُ لا لن أفوهَ بأسماء شهودٍ أو قاتلينَ ولن أبكي
سأبكي لأمةٍ وُلدت خرساء للتمِّ حاضناً زرقة الشطآن يبكي:
لِمَ البكاء على طفلٍ على شاعرٍ؟   سأكتب عن آخر فَيْءِ
لأرزة البيت عن رفِّ حمامٍ يجر سجّادة الليل عن الحلم عالياً
كجبالٍ.
وضعَ السيد الخليفة قانوناً من الماءِ   شعبُه المَرَقُ الطّينُ
سيوفٌ مصهورةٌ وضع السيد تاجاً مُرصّعاً بعيون الناس
هل هذه المدينة آيٌّ؟ هل ثياب النساء من ورق المصحفِ
أدخلت محجري

فِي مضيقٍ حفرته الساعاتُ ساءلت هل شعبيَ نهرٌ بلا مصبٍّ؟
أغنّي

لُغَةَ النصْل   أصرخُ انثقب الدهر وطاحت جدرانُه
بين أحشائي   تقيّات لم يعد لِيَ تاريخٌ ولا حاضرٌ
أنا الأَرَقُ الشمسيُّ والفُوهة الخطيئة والفِعلُ   انتظرْني يا
راكب الغيم أشيائيَ تغوى والشمس تخبط أطرافي أنا
الساكن المدى والمزامير أنا الغصنُ لاجئاً: أصْغِ هل تسمع هذا
النواح في كبد العالم؟   أُصغي للموت بين
تجاعيدي   هَذْينا

هذيت كي أحسن الموت اصطفيتُ النهدين بين تقاليديَ
هل جلدكِ السقوط هل الفخذان جرحٌ ملأتهُ التأمَ
العالم   هل أنتِ مقلعُ الليل في جلديَ؟ فأسي مسنونةٌ
صرتُ نبعاً آخراً ضيفتي تسيل ذراعاكِ اغترافٌ قوسٌ حملتكِ
وجهي صخَبٌ طائرٌ تقاسَمَهُ الصوت اسأليني أُجِبْ...
تكلَّمَ جَفْرٌ رصدتني خيولهُ انطفأ الهمسُ (أعندي أعندكِ الآن
ما يهمسُ؟)   نارٌ ملجومةٌ سفُنٌ تجنَحُ بحرٌ مروّضٌ

فتح النورس عينيه أغلقي   نَسّي الفتحة   في
ريشه المشعّثِ ماءً وشرارٌ   لو كان لو عرف الرعد لو
الرَّعد في يديَّ

هُدوءاً هذه قُبّةٌ وسُكنايَ في فُوهَة نَهْدٍ   أظلّ أحفر لو

غيّرت لو غيرَ الغبارُ عذاراهُ لو النارُ همزةٌ . . .

ذُبْـت فِي جنسيَ جنسي بلا حدودٍ ولا سيفٍ تلاشيْ لاشيِ تلاشيتُ وجهٌ واحدٌ نحن لا قميصيَ تفّاحٌ ولا أنتِ جنّةٌ نحن حقـلٌ وحصـادٌ والشـمس تحـرسُ أنْضجْتُكِ جيئي من ذلك الطرف الأخضر هذا قطافنا جسدانا زارعٌ حاصِدٌ

وحيدةَ أعضائيَ جيئي من ذلك الطَّـرَف   استحضرتُ موتي وسَلسليني ملكْنا جَمْرةَ الوقتِ والحنين ملكنا رَغَد الكون وهو يلتحف الناس اهتدينا . . .

قرأتُ في ورقٍ اصفرَ أنّي اموت نفياً تنوَّرتُ الصَّحـارى شعبسي يشـطّ . . . نبشنـا كلماتٍ دفينـة طعمهـا طَعـمُ العذارى .   دمشـق تدخـل في ثوبـيَ خوفـاً حبـاً تخالـط أحشائيَ تلغو . . .

لفظتِ جلدكِ خليٌّ شفتيك اصهريها بين أسناني أنا الليل والنهارُ أنا الوقتُ انصهرنا تأصّلي في متاهي . . .

هكذا أحببتُ خيمه
وجعلتُ الرَّمل في أهدابها
شجراً يمطر والصحراء غيمَهْ
ورأيتُ الله كالشّحاذ في أرض عليٍّ
وأكلت الشمس في أرض عليٍّ

وخبزت المئذنَهْ
ورأيت البحر يأتي في ضباب المدخنه
هائجاً يهمس :
مَن كوَّننا
لم يكن تكوينه إلا سقيفَهْ
رجَّها الإعصار فانهارت وصارت
خشباً يُحْرَقُ في دار خليفهْ .
نادرٌ أن ينطقَ البحرُ ولكن
نطقَ البحرُ: يبسنا
يبس التاريخ من تكرارِه
في طواحين الهواءْ
سقطَ الخالق في تابوتِه
سقطَ المخلوقُ في تابوتِه . .
والنساء ارتمْن في مقصورةٍ
ينتشلن الليلَ من آبارِه
ويُخيِّطن السماءْ
ويغنِّين : عليٌّ لَهَبٌ
ساحرٌ مشتعلٌ في كل ماءْ
ويسائلن السماء :
نجمةٌ أو مومياءْ

هذه الأرضُ؟
ويفْتقنَ السّماء
ويرقّعن السماء
قَبرَ الدجّالُ في عينيه شعباً
نَبشَ الدّجال من عينيه شعباً
وسمعناه يصليٌ فوقَه
ورأيناه يحيِّيه ويجثو
ورأينا
كيف صار الشعب في كفّيه ماء
ورأينا
كيف صار الماء طاحونَ هواءْ.

جزُرٌ للهيب تصعدُ فيها آسيا يصعدُ الغدُ انطفأت شمسٌ حلمنا بغير ما هجسَ الليل نهاري يقاسُ باللُّهب استصرختْ صوتُ الشعوب يفتتحُ الكونَ ويُغوي

لستُ الرمادَ ولا الريحَ

سريري أشهى وأبعدُ أقفاصٌ دروبٌ مهجورَةٌ
فرسُ الماضي رمادُ وصبغةُ الله لونٌ آخرٌ
لا يَدٌ عليٌّ

عليٌّ أبدُ النار والطفولـةِ هل تسمع برق العصـور
تسمع آهاتِ خطاها؟ هل الطريقُ كتابٌ أو يدٌ؟ إصبعُ
الغبار كدرويشٍ يغنّي ملكَ الأساطير هاتوا وطناً قرّبوا
المدائن هزّوا شجر الحلم غيّروا شجـر النوم كلامَ السماء
للأرضِ
طفلٌ تائهٌ تحت سرّةِ امرأةٍ سوداء بحثاً
طفل يشبُّ
وللأرض إلَهٌ أعمى يموت . . .

سلامٌ

لوجوهٍ تسير في وحدة الصحراء للشرق يلبس العشب
والنارَ   سلامٌ للأرض يغسلها البحر سلامٌ لحبّها . . .
عُرْيكَ الصاعقُ أُعطى أمطاره يتعاطانيَ رعدٌ في نهديَ
اختمرَ الوقت تَقدّمْ هذا دمي أَلَقُ الشرق اعترفْني وغِبْ
أضِعْني لفخذيك الدويَّ البرقِ اعترفني تبطّنْ جسَدي
ناريَ التوجّه والكوكب جرحي هدايةً أتهجّى . . .
أتهجّى نجمةً أرسمُها
هارباً من وطني في وطني
أتهجّى نجمة يرسمها
في خطى أيامه المنهزمه
يا رماد الكلمه
هل لتاريخيَ في ليلك طفلٌ؟

لم يَعُدْ غيرُ الجنون

إنني ألمحهُ الآنَ على شبّاكِ بيتي
ساهراً بين الحجار الساهره
مثل طفلٍ علّمته الساحره
انَّ في البحر امرأه
حمَلتْ تاريخه في خاتمٍ
وستأتي
حينما تخمد نارُ المدفأه
ويذوب الليل من أحزانِه
في رماد المدفأه . . .

. . . ورأيت التاريخ في رايةٍ سوداء يمشي كغابةٍ لم
أُؤرِّخْ عاشَّ في الحنين في النار في الثورة في سحر سُمِّه
الخلاَّق

وطني هذه الشرارة ، هذا البرق في ظلمة الزمان الباقي . . .

(أوائل كانون الثاني، ١٩٦٩)

قبر من أجل نيويورك

- ١ -

حتى الآن، تُرسم الأرض إجّاصةً

أعني ثدياً

لكن، ليس بين الثدي والشاهدة إلا حيلةٌ هندسية:

نيويورك،

حضارةٌ بِأربع أرجل؛ كلّ جهةٍ قتلٌ وطريق إلى القتل،

وفي المسافات أنين الغرقى.

نيويورك،

امرأةٌ - تمثال امرأةٍ

في يدٍ ترفع خِرقةً يسمّيها الحريةَ ورقٌ نسمّيه التاريخ

وفي يدٍ تخنق طفلةً اسمها الأرض

نيويورك،

جسدٌ بلون الإسفلت. حول خاصرتها زنّارٌ رطب، وجهها شبّاك مغلق... قلت: يفتحه وولت ويتمان - «أقول كلمة

السر الأصلية» ـ لكن لم يسمعها غير إلّه لم يعد في مكانه. السجناء، العبيد، البائسون، اللصوص، المرضى يتدفقون من حنجرته، ولا فتحة، لا طريق. وقلت جسر بروكلين! لكنه الجسر الذي يصل بين ويتمان ووول ستريت، بين الورقة ـ العشب والورقة ـ الدولار...

نيويورك ـ هارلم،

مَنْ الآتي في مقصلةِ حريرٍ، مَن الذاهب في قبرٍ بطول الهدسون؟ انفجرْ يا طقس الدمع، تلاحمي يا أشياء التعب. زرقةٌ، صفرةٌ، وردٌ، ياسمينٌ والضوء يسنّ دبابيسه، وفي الوخز تولدُ الشمس. هل اشتعلتَ أيها الجرح المختبيء بين الفخذ والفخذ؟ هل جاءك طائر الموت وسمعت آخر الحشرجة؟ حبلٌ، والعنقُ يجدل الكآبة وفي الدم سويداء الساعة...

نيويورك ـ ماديسون ـ بارك افينيو ـ هارلم،

كسلٌ يشبه العمل، عملٌ يشبه الكسل. القلوب محشوةٌ إسفنْجاً والأيدي منفوخةٌ قصباً. ومن أكداس القذارة وأقنعة الامبايرستيت، يعلو التاريخ روائح تتدلّى صفائحَ صفائح:
ليس البصر أعمى بل الرأس،

ليس الكلام أجردَ بل اللسان .

نيويورك ـ وول ستريت ـ الشارع ١٢٥ ـ الشارع الخامس

شبحٌ ميدوزيٌّ يرتفع بين الكتف والكتف . سوق العبيد من كل جنس . بشرٌ يحيون كالنبات في الحدائق الزجاجية . بائسون غير منظورين يتغلغلون كالغبار في نسيج الفضاء ـ ضحايا لولبية ،

الشمس مأتمٌ
والنهار طبلٌ أسود .

- ٢ -

هنا،

في الجهة الطحلبيّة من صخرة العالم، لا يراني إلا زنجيّ
يكاد أن يُقتل أو عصفورٌ يكاد أن يموت، فكّرت:

نبتةٌ تسكن في أصيصٍ أحمر كانت تتحول وأنا أبتعد عن
العتبة، وقرأت:

عن فئرانٍ في بيروت وغيرها ترفل في حرير بيت أبيض، تتسلح
بالورق وتقرض البشر،

عن بقايا خنازير في بستان الأبجدية تدوس الشعر،
ورأيت:

أينما كنت -
بتسبورغ (أنتيرناشينال بويتري فورم)،
جون هوبكنز (واشنطن)، هارفارد
(كامبردج، بوسطن)، آن آربر (ميشيغن،
ديترويت)، نادي الصحافة الأجنبية،
النادي العربي في مقز الأمم المتحدة
(نيويورك)، برنستون، تمبل
(فيلادلفيا)،

رأيتُ

الخريطةَ العربية فرَساً تجرجر خطواتها والزمن يتهدّل كالخرْج نحو القبر أو نحو الظل الأكثر عتمة، نحو النار المنطفئة أو نحو نار تنطفىء؛ تكتشف كيمياء البعد الآخر في كركوك الظهران وما تبقّى من هذه القلاع في أفراسيا العربية. وها هو العالم ينضج بين أيدينا. هَا! نهيّىء الحرب الثالثة، ونقيم المكاتب الأولى والثانية والثالثة والرابعة لنتأكد:

١ ـ في تلك الناحية حفلة جاز،

٢ ـ في هذا البيت شخصٌ لا يملك غير الحبر،

٣ ـ في هذه الشجرة عصفور يغني.

ولنعلن:

١ ـ الفضاء يقاس بالقفص أو بالجدار،

٢ ـ الزّمن يُقاس بالحبل أو بالسوط،

٣ ـ النظام الذي يبني العالم هو الذي يبدأ بقتل الأخ،

٤ ـ القمر والشمس درهمان يلمعان تحت كرسي السلطان،

ورأيتُ

أسماء عربية في سعة الأرض أكثر حنوّاً من العين، تُضيء لكن كما يضيء كوكبٌ مشرّد «لا أسلاف له وفي خطواته جذوره...».

هنا،

في الجهة الطحلبيّة من صخرة العالم أعرف، أعترف. أذكر نبتةً أسميها الحياة أو بلاديَ، الموتَ أو بلادي ـ ريحاً تجمد كالملاءة، وجهاً يقتل اللعب، عيناً تطرد الضوء، وأبتكر ضدّكِ يا بلادي،

أهبط في جحيمكِ وأصرخ:
أقطّر لكِ إكسيراً سامّاً وأحييكِ،
وأعترف: نيويورك، لكِ في بلادي الرّواق والسرير، الكرسي والرأس. وكل شيءٍ للبيع: النهار والليل، حجر مكّة وماء دجلة. وأعلن: مع ذلك تلهثين ـ تسابقين في فلسطين، في هانوي، في الشمال والجنوب، الشرق والغرب، أشخاصاً لا تاريخ لهم غير النار،

وأقول: منذ يوحنا المعمدان، يحمل كلٌّ منا رأسه المقطوعَ في صحنٍ وينتظر الولادة الثانية.

- ٣ -

تفتّتي يا تماثيلَ الحرية ، أيتها المسامير المغروسة في الصدور بحكمةٍ تقلّد حكمة الورد. الريح تهبّ ثانية من الشرق ، تقتلع الخيام وناطحات السحاب. وثمة جناحان يكتبان :

أبجديةٌ ثانية تطلعُ في تضاريس
الغرب ،
والشمسُ ابنةُ شجرةٍ في بستان القدس.

هكذا أضرمُ لهبي. أبدأ من جديدٍ، أشكّل وأحدّد :

نيويورك،

امرأةٌ من القشّ والسرير يتأرجحُ بين الفراغ والفراغ ، وها هو السقف يهترىء : كل كلمةٍ إشارةُ سقوطٍ، كل حركةٍ رفشٌ أو فأس . وفي اليمين واليسار أجسادٌ تحب أن تغير الحبَّ النظرَ السمع الشمّ اللمس والتغيّر - تفتح الزمن كبوّابةٍ تكسرها وترتجل الساعات الباقية .

الجنسَ الشعرَ الأخلاقَ العطشَ القولَ الصّمت وتنفي الأقفال. قلت : أغري بيروت،

- «إبحثْ عن الفعل. ماتت الكلمة»، يقول آخرون .

الكلمة ماتت لأن ألسنتكم تركت عادة الكلام إلى عادة المومأة.

الكلمة؟ تريدون أن تكتشفوا نارها؟ إذن، اكتبوا. أقول اكتبوا، ولا أقول مَوْمِئوا، ولا أقول انسخوا. اكتبوا ـ من المحيط إلى الخليج لا اسمع لساناً، لا أقرأ كلمة. أسمع تصويتاً. لذلك لا ألمح من يلقي ناراً.

الكلمة أخفّ شيءٍ وتحمل كل شيء. الفعل جهةٌ ولحظةٌ، والكلمة الجهات كلها الوقتُ كله. الكلمة ـ اليد، اليد ـ الحلم

أكتشفكِ أيتها النار يا عاصمتي،

أكتشفكَ أيها الشعر،

وأغري بيروت. تلبسني وألبسها. نشرد كالشعاع ونسأل: من يقرأ، من يرى؟ الفانتوم لدايان والنفط يجري إلى مستقرّه. صدق الله، ولم يخطىء ماو: «السلاح عامِلٌ مهمٌ جداً في الحرب، لكنه غير حاسم. الإنسانُ، لا السلاح، هو العامل الحاسم»، وليس هناك نصرٌ نهائيٌ ولا هزيمة نهائية.

ردّدتُ هذه الأمثال والحكم، كما يفعل العربي، في وول ستريت، حيث تصبّ أنهارُ الذهب من كل لونٍ آتيةً من الينابيع. ورأيت بينها الأنهار العربية تحمل ملايين الأشلاء

ضحايا وتقدماتٍ إلى الوثن السيد. وبين الضحية والضحية يقهقه البحارة فيما يتدحرجون من كريزلر بيلدنغ، ليعودوا إلى الينابيع.

هكذا أضرم لهبي،

نسكن في الصخب الأسود لتمتلىء رئاتنا بهواء التاريخ،

نطلع في العيون السوداء المسيّجة كالمقابر لنغلب الكسوف،

نسافر في الرأس الأسود لنواكب الشمس الآتية.

- ٤ -

نيويورك، أيتها المرأة الجالسة في قوس الريح،
شكلاً أبعدَ من الذرَّة،
نقطةً تهرول في فضاء الأرقام،
فخذاً في السماء وفخذاً في الماء،

قولي أين نجمُكِ؟ المعركة آتيةٌ بين العشب والأدمغة الألكترونية. العمر كله معلّق على جدارٍ، وها هو النزيف في الأعلى رأسٌ يجمع بين القطب والقطب، في الوسط آسيا وفي الأسفل قدمان لجسد غير منظور. أعرفك أيتها الجثّة السابحة في مِنسّك الخشخاش، أعرفك يا لعبة الثدي والثّدي. أنظر إليكِ وأحلم بالثلج، أنظر إليكِ وأنتظر الخريف.

ثلجكِ يحمل الليل، ليلك يحمل الناس خفافيش تموت. كلّ جدارٍ فيك مقبرة. كل نهارٍ حفّارٌ أسود
يحمل رغيفاً أسود صَحْناً أسود
ويخطط بهما تاريخ البيت الأبيض:

أ -

ثمة كلابٌ تترابط كالقيد. ثمة قططٌ تلد خوذاً وسلاسل. وفي

الأزِقّة المتسللةِ على ظهور الجرذان، يتناسل الحرس الأبيض كالفطر.

ب ـ
امرأةٌ تتقدم وراء كلبها المسرج كالحصان. للكلب خطوات الملك، وحوله ترحف المدينة جيشاً من الدمع. وحيث يتكدس الأطفال والشيوخ الذين يغطيهم الجلد الأسود، تنمو براءة الرصاص كالزرع، ويضرب الهلعُ صدر المدينة.

ج ـ
هارلم ـ بدفورد ستويفنسنت: رملٌ من البشر يتكاثف بروجاً بروجاً. وجوه تنسج الأزمنة. النفايات ولائم للأطفال، الأطفال ولائم للجرذان... في العيد الدائم لثالوثٍ آخر: الجابي، الشرطي، القاضي ـ سلطة الفتك، سيف الإبادة.

د ـ
هارلم (الأسود يكره اليهودي)،
هارلم (الأسود لا يحب العربي حين يذكر تجارة الرقيق)،
هارلم ـ برودواي (البشر يَدخلون رخوياتٍ في أنابيق الكحول والمخدرات).

برودواي ـ هارلم. مهرجان سلاسل وعصيّ، والشرطة جرثومة الزمن. طلقةٌ واحدة، عشر حمامات. العيون صناديق تتموّج بثلج أحمر، والزمن عكاز يعرج. إلى التعب أيها الزنجيّ الشيخ، الزنجي الطفل. إلى التعب أيضاً وأيضاً.

هارلم،
لستُ آتياً من الخارج: أعرف حقدك، أعرف خبزه الطيّب. ليس للمجاعة غير الرعد المفاجيء، ليس للسجون غير صاعقة العنف. ألمح نارك تتقدم تحت الإسفلت في خراطيمَ وأقنعة، في أكداسٍ من النفايات يحضنها عرش الهواء البارد، في خطوات منبوذةٍ تَنْتَعِل تاريخ الريح.

هارلم،
الزمن يُحتضَر وأنتَ الساعة:
أسمع دموعاً تهدر كالبراكين،
ألمح أشداقاً تأكل البشر كما تأكل الخبز
أنتَ الممحاة لتمحو وجه نيويورك،
أنت العاصفُ لتأخذها كالورقة وترميها.

نيويورك = SUBWAY + I.B.M آتياً من الوحل والجريمة

ذاهباً إلى الوحل والجريمة.

نيويورك = ثقباً في الغلاف الأرضي ينبجس منه الجنون أنهاراً أنهاراً.

هارلم، نيويورك تُحتضَر وأنتَ الساعة.

بين هارلم ولنكولن سنتر،
أتقدم رقماً تائهاً في صحراء تغطيها أسنان فجرٍ أسود. لم يكن ثلج، لم تكن ريح. كنت كمن يتبع شبحاً (ليس الوجه وجهاً بل جرح أو دمع، ليست القامة قامة بل وردة يابسة)، شبحاً - (هل هو امرأة؟ رجلٌ؟ هل هو امرأة - رجل؟) يحمل في صدره أقواساً ويكمن للفضاء. مرّت غزالة ناداها الأرض. ظهر عصفور ناداه القمر. وعرفت أنه يركض ليشهد بعث الهندي الأحمر... في فلسطين وأخواتها،

والفضاء شريط رصاص،
والأرض شاشة قتلى.

وشعرت أنني ذرةٌ تتموّج في كتلةٍ تتموج نحو الأفق الأفق الأفق. وهبطت أوديةٌ تتطاول وتتوازى، وخطر لي أن أشكّ في استدارة الأرض...
وفي البيت كانت يارا،

يارا طرف أرضٍ ثانية ونينارُ طرفٌ آخر.
وضعتُ نيويورك بين قوسين وسرت في مدينة موازية. قدماي تمتلئان بالشوارع، والسماء بحيرةٌ تسبح فيها أسماك العين والظنّ وحيوانات الغيم. وكان الهدسون يرفرف غراباً يلبسُ

جسد البلبل. وتقدّم نحوي الفجر طفلاً يتأوه ويشير إلى جراحه. وناديت الليل فلم يجب. حمل سريره واستسلم للرصيف. ثم رأيته يتغطى بريحٍ لم أجد أرقّ منها غير الجدران والأعمدة... صرخة، صرختان، ثلاث... وأجفلت نيويورك كضفدعٍ نصف جامد يقفز في حوض بلا ماء.

لنكولن،

تلك هي نيويورك: تتكىء على عكاز الشيخوخة وتتنزه في حدائق الذاكرة، والأشياء كلها تميل إلى الزهر المصنوع. وفيما أنظر إليكَ، بين المرمر في واشنطن، وأرى من يشبهك في هارلم، أفكر: متى تحين ثورتك الآتية؟ ويعلو صوتي: حرِّروا لنكولن من بياض المرمر، من نيكسون، وكلاب الحراسة والصيد. اتركوا له أن يقرأ بعينٍ جديدة صاحب الزنج علي ابن محمد، وأن يقرأ الأفق الذي قرأه ماركس ولينين وماوتسي تونغ.
والنِّفّري، ذلك المجنون السماويّ الذي أنْحلَ الأرض وسمح لها أن تسكن بين الكلمة والإشارة. وأن يقرأ ما كان يودّ أن يقراه هوشي منه، عروةَ ابن الورد: «أقسّم جسمي في جسومٍ كثيرة...»، ولم يعرف عروة بغداد، وربما رفض أن

يزور دمشق. بقي حيث الصحراء كتفٌ ثانية تشاركه حمل الموت. وترك لمن يحب المستقبل جزءاً من الشمس منقوعاً في دم غزالةٍ كان يناديها: حبيبتي! واتفق مع الأفق ليكون بيته الأخير.

لنكولن،

تلك هي نيويورك: مرآة لا تعكس إلا واشنطن. وهذه واشنطن: مرآةٌ تعكس وجهين - نيكسون وبكاءَ العالم. ادخلْ في رقصة البكاء، انهضْ لا يزال ثمة مكان، لا يزال دور. . . أعشق رقصة البكاء الذي يتحول إلى حمامةٍ تتحول إلى طوفان. «الأرض للطوفان محتاجةٌ. . .».

قلت البكاء وعنيت الغضب. عنيت كذلك الأسئلة: كيف أقنع المعرّةَ بأبي العلاء؟ سهولَ الفرات بالفرات؟ كيف أبدلُ الخوذةَ بالسنبلة؟ (لا بدّ من الجرأة لطرح أسئلة أخرى على النبي والمصحف)، أقول والمسح غيمةٌ تتقلد النار؛ أقول والمسح بشراً يسيلون كالدمع.

- ٧ -

نيويورك،

أحصركِ بين الكلمة والكلمة، أقبض عليكِ، أدحرجكِ؛ أكتبكِ وأمحوكِ. حارّةً باردة، بين بين. مستيقظة، نائمة، بين بين. أجلس فوقك وأتنهد. أتقدّمك وأعلّمكِ السير ورائي. سحقتكِ بعينيَّ، أنت المسحوقة بالرعب. حاولت أن آمرَ شوارعك: استلقي بين فخذيَّ لأمنحك مدى آخر؛ وأشياءكِ: اغتسلي لأعطيك أسماء جديدة.

كنت لا أجد فرقاً بين جسدٍ برأس يحمل أغصاناً نسميه شجرة، وجسدٍ برأسٍ يحمل خيوطاً رفيعة نسميه إنساناً. واختلطت عليَّ الحجرة والسيارة، وبدا الحذاء في الواجهات خوذةَ شرطي والرغيفُ صفيحة توتياء.

مع ذلك، ليست نيويورك لغواً بل كلمة. لكن حين أكتب: دمشق، لا أكتب كلمة بل أقلّد لغواً. دال ميم شين قاف... لا تزال صوتاً، أعني شيئاً من الريح. خرجت مرةً من الحبر ولم تعدْ. الزمن واقف حارساً على العتبة يسأل: متى تعود، متى تدخل؟ كذلك بيروت القاهرة بغداد لغوٌ شاملٌ كهباء الشمس...

شمس، شمسان، ثلاث، مئة...

(استيقظ فلانٌ وفي عينيه اطمئنانٌ يمتزج بالقلق. يترك زوجاته وأبناءه ويخرج حاملاً بندقيته. شمس، شمسان، ثلاث، مئة. . . ها هو كالخيط مهزوماً ينزوي تحت نفسه. يجلس في المقهى. المقهى يمتلىء بحجارة ودُمىً نسميها رجالاً، بِضفادعَ تتقيأ الكلام وتوسخ المقاعد. كيف يستطيع فلانٌ أن يثور وعقله مليءٌ بدمه؛ ودمه مليءٌ بالسلاسل؟)

اسألك، أنت من تقول لي:

أجهل العلم وأتخصّص بكيمياء العرب.

- ٨ -

السيدة بروينج، يونانية في نيويورك. بيتها صفحة من كتاب المتوسط - الشرق. ميرين، نعمة الله، ايف بونفوا. . . وأنا كمن يضيع ويقول أشياء لا تقال. كانت القاهرة تتناثر بيننا ورداً يجهل الأزمنة، وكانت الاسكندرية تختلط بصوت كفافي وسيفيريس. «هذه أيقونة بيزنطية. . .»، قالت والزمن يلتصق على شفتيها عطراً أحمر. كان الوقت يحدودب والثلج يتكيء، (منتصف ليلة ٦ نيسان ١٩٧١).

ونهضت في الصباح صارخاً

قبيل ساعة العودة: نيويورك!

تمزجين الأطفال بالثلج وتصنعين كعكة العصر. صوتك إكسيدٌ، سمٌّ مما بعد الكيمياء، واسمكِ الأرقُ والاختناق. سنترال بارك تولم لضحاياها، وتحت الشجر أشباح جثث وخناجر. ليس للريح غير الأغصان العارية، ليس للمسافر إلا طريق مسدود.

ونهضت في الصباح صارخاً: نيكسون، كم طفلاً قتلت اليوم؟

- «لا أهمية لهذه المسألة!» (كالي)

- «صحيح أن هذه مشكلة. لكن أليس صحيحاً كذلك أن هذا ينقص عدد العدو؟» (جنرال أميركي).

كيف أعطي لقلب نيويورك حجماً آخر؟ هل القلب هو كذلك يوسّع حدوده؟

نيويورك ـ جنرال موتورز الموت،

«سَنبدل الرجال بالنار!» (مكنمارا) ـ يجفّفون البحر الذي يسبح فيه الثوار، و «حيث يجعلون من الأرض صحراء، يسمون ذلك سلاماً!» (تاسيت)».

ونهضت قبل الصباح، وأيقظت ويتمان.

- ٩ -

وولت ويتمان،

ألمح رسائل إليك تتطاير في شوارع منهاتن. كل رسالةٍ عربةٌ ملأى بالقطط والكلاب. للقطط والكلاب القرن الواحد والعشرون، وللبشر الإبادة:

هذا هو العصر الأميركي!

ويتمان،

لم أرك في منهاتن ورأيتُ كل شيء. القمر قشرةٌ تُقذف من النوافذ، والشمس برتقالة كهربائية. وحين قفز مِن هارلم طريق أسود في استدارة قمرٍ يتوكأ على أهدابه، كان وراء الطريق ضوءٌ يتبعثر على مدى الإسفلت، ويغور كالزرع بعد أن يصل إلى غرينيش فيليج، ذلك الحي اللاتيني الآخر، أعني الكلمة التي تصل إليها بعد أن تأخذ كلمة حُبّ وتضع نقطة تحت الحاء. (أذكر أنني كتبت ذلك في مطعم فايسروي بلندن، ولم يكن معي غير الحبر. وكان الليل ينمو كزغب العصافير).

ويتمان،

«الساعة تعلن الوقت» (نيويورك ـ المرأة قمامة، والقمامة زمنٌ يتجه إلى الرماد).

«الساعة تعلن الوقت» (نيويورك ـ التظلم بافلوف، والناس كلاب

التجارب. . . حيث الحرب الحرب الحرب!). «الساعة تعلن الوقت» (رسالة آتية من الشرق. طفل كتبها بشريانه. اقرأها: الدمية لم تعد حمامة. الدمية مدفع، رشاش، بندقية. . . جثثٌ في طرقات من الضوء تصل بين هانوي والقدس، بين القدس والنيل).

ويتمان،
«الساعة تعلن الوقت» وأنا
«أرى ما لم تره وأعرف ما لم تعرفه»،
أتحرك في مساحة شاسعة من علبٍ تتجاوز
كسراطين صفراء في محيطٍ من ملايين
الجزر - الأشخاص؛ كل واحدة عمود
بيدين وقدمين ورأس مكسور. وأنتَ

«أيها المجرم، المنفيّ، المهاجر»
لم تعد إلا قبّعة تلبسها عصافير لا تعرفها سماء أميركا!
ويتمان، ليكنْ دورنا الآن. أصنع من نظراتي سلّماً. أنسج خطواتي وسادةً، وسوف ننتظر. الإنسان يموت، لكنه أبقى من القبر. ليكن دورنا، الآن. أنتظر أن يجري الفولغا بين منهاتن وكوينز؛ أنتظر أن يصبَّ هوانغ هو حيث يصب الهدسون. تستغرب؟ ألم يكن العاصي يصبّ في التيبر؟ ليكن دورنا الآن. أسمع رجّةً

وقصفاً. وول ستريت وهارلم يلتقيان ـ يلتقي الورق والرعد، الغبار والعصف. ليكن دورنا، الآن. المحار يبني أعشاشه في موج التاريخ. الشجرة تعرف اسمها. وثمة ثقوب في جلد العالم، شمسٌ تغيّر القناعة والنهاية وتنسحب في عينٍ سوداء. ليكن دورنا، الآن نقدر أن ندور أسرع من الدولاب، أن نحطِّم الذرة ونسبح في دماغ إلكتروني باهت أو متلألىء، فارغ أو مليء، وأن نتخذ من العصفور وطناً. ليكن دورنا، الآن. ثمة كتاب أحمر صغير يصعد. لا الخشبةَ التي اهترأت تحت الكلمات بل هذه التي تتسع وتنمو، خشبة الجنون الحكيم، والمطر الذي يصحو لكي يرث الشمس. ليكن دورنا، الآن. نيويورك صخرة تتدحرج فوق جبين العالم. صوتها في ثيابكَ وثيابي، فحمها يصبغ أطرافك وأطرافي. . . أستطيع أن أرى النهاية، لكن كيف أقنع الزمن لكي يبقيني حتى أرى؟ ليكن دورنا، الآن. وليسبح الزمن في ماء هذه المعادلة:

نيويورك + نيويورك = القبر أو أي شيء يجيء من القبر،

نيويورك − نيويورك = الشمس.

- ١٠ -

في الثمانين أبدأ الثامنة عشرة. قلت هذا أقول وأكرّر ولم تسمع بيروت.

جثةٌ هذه التي توحِّد بين البشرَة والثوب
جثة هذه المستلقية كتاباً لا حبراً
جثة هذه التي لا تسكن في صرف الجسد ونحوه
جثة هذه التي تقرأ الأرض حجراً لا نهراً
(نعم أحبّ الأمثال والحكمة، أحياناً

إن لم تكن مُهيَّماً، تكن جثة!)

أقول وأكرر،
شعري شجرة وليس بين الغصن والغصن، الورقة والورقة إلاّ أمومةُ الجذع
أقول وأكرر،
الشعر وردة الرياح. لا الريح، بل المهبّ، لا الدورة بل المدار.
هكذا أبطل القاعدة، وأقيم لكل لحظة قاعدة. هكذا أقترب ولا أخرج. أخرج ولا أعود. وأتجه نحو أيلول والموج.
هكذا، أحمل كوبا على كتفيَّ وأسأل في نيويورك: متى يصل كاسترو؟ وبين القاهرة ودمشق أنتظر على الطريق المؤدي...
... التقى غيفارا بالحرية. تغلغل معها

في فراش الزمن وناما. وحين
استيقظ لم يجدها. ترك النوم
ودخل في الحلم،
في بيركلي، في بيروت وبقية الخلايا، حيث يتهيأ كل شيء ليصير كلَّ شيء.

هكذا،
بين وجهٍ يميل إلى المار يجوانا تحمله شاشة الليل،
ووجه يميل إلى الآي بي إم تحمله شمس باردة،
أجريت لبنان نهراً من الغضب، وطلع جبران في ضفة وطلع أدونيس في الضفة الثانية.
وخرجت من نيويورك، كما أخرج من سرير:
المرأة نجمة مطفأة والسرير ينكسر أشجاراً بلا فضاء، هواءٌ يعرج، صليباً لا يتذكر الشوك
والآن،
في عربة الماء الأول، عربة الصور التي تجرح أرسطو وديكارت
أتوزع بين الأشرفية ومكتبة رأس بيروت، بين زهرة الإحسان ومطبعة حايك وكمال، حيث تتحول الكتابة إلى نخلة والنخلة إلى يمامة.
حيث تتناسل ألف ليلة وليلة وتختفي بثينة وليلى

حيث يسافر جميل بين الحجر والحجر، وما من أحدٍ يحظى بقيس.
لكن،
سلامٌ لوردة الظلام والرمل
سلامٌ لبيروت.

(نيويورك ٢٥ آذار - بكفيا ١٥ أيار ١٩٧١).

الفهرس

من منشورات دار الآداب

مجموعات الشاعر

- قصائد أولى، الطبعة الأولى ١٩٥٧.
- أوراق في الريح، الطبعة الأولى ١٩٥٨.
- أغاني مهيار الدمشقي، الطبعة الأولى ١٩٦١.
- كتاب التحولات والهجرة في أقاليم النهار والليل، الطبعة الأولى، ١٩٦٥.
- المسرح والمرايا، الطبعة الأولى، ١٩٦٨.
- هذا هو اسمي (وقت بين الرماد والورد)، الطبعة الأولى ١٩٧١.
- مفرد بصيغة الجمع، الطبعة الأولى ١٩٧٥.
- المطابقات والأوائل، الطبعة الأولى ١٩٨٠.
- كتاب الحصار، الطبعة الأولى ١٩٨٥.
- احتفاء بالأشياء الغامضة الواضحة، الطبعة الأولى ١٩٨٨.

دار الآداب
هاتف ٨٠٣٧٧٨ - ٨٦١٦٣٣
ص. ب ٤١٢٣ - ١١ بيروت

تصميم الغلاف ناصر عاصي
لوحة الغلاف للفنان حمودة عبد الرزاق